الفصل الثاني

الحاجة إلى منهج مشترك
في تأسيس الحوار بين المشرق والمغرب

أ.د / محمد يحيى فرج(*)

تمهيد: أصول الثقافة العربية في المشرق والمغرب

(1) في المشرق العربي:

(أ) **الكندي** : ولد في البصرة، حوالي سنة ٧٩٦ م (١٨٠ هجرية)، ولقب بفيلسوف العرب. وكتب عددا هائلا من الرسائل في مختلف فروع علوم الأوائل: الفلسفة، علم النفس، الطب، الهندسة، الفلك، الموسيقى، التنجيم، الجدل الديني، السياسة . . . الخ، يقول عبد الرحمن بدوي: (كان الكندي أول فيلسوف عربي، بل أول فيلسوف مسلم على وجه العموم. وهو أول من أثري الثقافة العربية حين مزج بين الفكر اليوناني والفكر الديني الإسلامي. وكان واسع الثقافة، حيث شملت معرفته كل علوم الأوائل، ولا نكاد نجد بين رجال النهضة في أوربا من يضاهيه في اتساع المعرفة والتحصيل الفلسفي والعلمي) " الموسوعة ج٢ " .

(ب) **الفارابي**: وهو ثاني فيلسوف، ذي شان في الفلسفة والثقافة الإسلامية. لقب بالمعلم الثاني (بعد أرسطو). ولد الفارابي عام ٨٤٠ (٢٢٥ هجرية)، وقد ارتحل في سن مبكر إلى بغداد، ومنها إلى حلب، ثم إلى دمشق، ومنها إلى مصر عام ٣٣٧ هجرية (وهى السنة التي كانت فيها حكومة دمشق تتبع سلطان مصر). ثم عاد إلى دمشق حيث توفى فيها عام ٣٣٩ هجرية. يقول عبد الرحمن بدوي: (بفضل الفارابي توطدت أركان الفكر والثقافة في العالم الإسلامي، وقد أثري الثقافة الإسلامية بالمزج بين الأفلاطونية والافلوطينية

(*) أستاذ دكتور رئيس قسم الفلسفة ـ كلية الآداب ـ جامعة عين شمس.

obeikandl.com

من ناحية ، والفلسفة الأرسطية والمشائية من ناحية أخرى . . .) "الموسوعةج٢" .

(ج) **ابن سينا** : ولد عام ٩٨ (٣٧٠ هجرية) بقرية افشنة، ثم ارتحل إلى بخاري . ثم إلى أصفهان. وقد انتشرت حوله الأساطير : فهو رمز الحكمة عند الشرقيين، وأمير الأطباء عند الغربيين ، وفى الفولكور التركي صورة خيالية عن ساحر عجيب الأطوار . . ويمكن تصنيف أعماله إلى منطقية ونفسية وفلسفية وإلهية وسياسة وأخلاق وتصوف . . . . . الخ . يقول عبد الرحمن بدوي : (لقد آثري ابن سينا الثقافة الإسلامية بالمزج بين فلسفة أرسطو وبعض أجزاء فلسفة أفلاطون، لكن السائد في مذهبة هو الفلسفة المشائية . وقد استطاع في موسوعته الفلسفية الكبرى (الشفاء) أن يقدم أوفى دائرة معارف فلسفية عرفتها العصور الوسطى في الغرب . "الموسوعةج١" .

(د) **الغزالي** : ولد عام ١٠٥٩ م (٤٥٠ هجرية) بمدينة طوس . ولقب بحجة الإسلام . ارتحل إلى بغداد ليدرس بها، ثم سلك طريق الزهد والانقطاع، ثم رحل إلى دمشق و أقام بها مدة قصيرة، ثم إلى بيت المقدس والخليل . حيث قام بتصنيف كتاب الإحياء . ثم جاء مصر وقصد (الإسكندرية)، ومنها إلى المغرب، ثم أخيرا إلى مسقط رآسة . يقول عبد الرحمن بدوي : (كان الغزالي مفكرا ومتكلما وفقيها وصوفيا، وكانت لدية القدرة على إقامة الحجة بشكل منقطع النظير . وليس بصحيح مطلقا ما يذهب إليه البعض من أن هجومه على الفلاسفة والفلسفة عموما كان له اثر في صرف المسلمين عن الفلسفة، وآية ذلك أن جميع فلاسفة الأندلس إنما عاشوا وازد هروا بعده، كما أن الفلسفة الإسلامية في المشرق قد تابعت مسيرتها القوية الخصبة دون أن تعبأ بما قاله الغزلي) "الموسوعةج٢" . وقد خصص الغزالي للرد على الفلاسفة أهم كتبه في الفلسفة وهو "تهافت الفلاسفة" ـ سواء فلاسفة اليونان القدماء، أو الفلاسفة المسلمين مثل ابن سينا والفارابي . .

(٢) في المغرب العربي:

يمثل الثقافة والفلسفة العربية في المغرب العربي أربعة من كبار المفكرين وهم : ابن باجة وابن طفيل، وابن رشد وابن خلدون . وسوف نقتصر هنا على المفكرين الآخرين :

(أ) **ابن رشد** : ولد في مدينة (قرطبة) عام ١١٢٦م (٥٢٠ هجرية)، ثم ارتحل مراكش عام ١١٥٣م حتى صار قاضيا مشهورا . يقول عبد الرحمن بدوي : (ظفر ابن رشد

openkanoon.com

في العصر الوسيط، واوائل العصر الحديث بشهرة لم يحظ بمثلها أي فيلسوف إسلامي آخر. وقد كان القديس توما الاكويني (١٢٢٥) اكبر خصم وفى الوقت نفسه اكبر مستفيد من ابن رشد ومؤلفاته وشروحه. بينما كان رو جر بيكون شديد الإعجاب بابن رشد وفلسفته. وقد ظلت مؤلفاته وشروحه تحظى بعناية وافرة لدى المشتغلين بالفلسفة في أوربا في النصف الثاني من القرن الثالث عشر، حتى اصبح "سيد العلماء" في بادوفا، كما قال عنة سافونا عام ١٤٤٠ (انه ملك العبقرية الإلهية التي شرحت جميع مؤلفات أر سطو)ومن أهم أعماله كتاب "تهافت التهافت" ردا على كتاب الغزالي "تهافت الفلاسفة" الموسوعة ج١.

(ب) **ابن خلدون**: ولد في تونس عام ١٣٣٢م (٧٣٢ هجرية)، وتوفى في القاهرة عام ١٤٠٦م (٨٠٨ هجرية) وهو فيلسوف وعالم اجتماع وسياسي. يقول جميل صليبا في كتابه (تاريخ الفلسفة العربية): (إن آراء ابن خلدون عن علم التاريخ وعلم العمران البشرى ـ أي الاجتماع، لا يدخله في عداد مؤسسي فلسفة التاريخ فحسب، بل في عداد مؤسسي علم الاجتماع وعلم الانثروبولوجيا الحضاري. وقد لفت الأنظار بمقدمته عن علم العمران عند الغالبية العظمى من علماء أوربا، ولم تتحقق آماله إلا على أيدي التوربين).

تعقيب: علاقة المشرق بالمغرب:

يتبين لنا مما سبق أن المشرق كان اسبق من المغرب إلى مضمار الحضارة والثقافة. لذلك كانت الوفود تزحف من المغرب إلى مناهل الثقافة في بغداد ودمشق والحجاز لكي تغترف من العلم الإسلامي في منابعه، كما ازدهرت مراكز استنساخ الكتب من المشرق، وكان اهتمام أهل المغرب في بادي الأمر بالرياضيات والعلم الطبيعي والطب ودراسة الشعر والتاريخ والجغرافيا (أبو ريان: تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام).

علاقة المغرب بالفكر الأوربي:

كما أشرنا، كان لآراء ابن رشد تأثير كبير على محاولات التوفيق بين الدين والفلسفة عند فلاسفة اليهود والمسيحيين في الغرب المسيحي، وقد تأثر بآرائه توما الاكويني، ونشأت رشديه لاتينية تتعصب لآراء الشارح الكبير وتنهج منهجه. ولا شك أن محاولة (اسبينوزا) في التوفيق بين الفلسفة والدين (ومقالة في اللاهوت والسياسة) إنما ترجع في جملتها إلى مجهودا ابن رشد وأثرة في هذا الميدان.

وما نود التركيز عليه ـ بعد هذا العرض ـ هو أن مفكرى المشرق والمغرب كانوا على

وعى بأهمية المنهجيات في الفلسفة والثقافة العربية، وتأصيل الحوار فيما بينهما على هذا الأساس، وهو الأمر الذي لفت نظر المفكرين الغربيين في العصر الوسيط، مما حدا بفلاسفة أوربا إلى تأصيل الحوار مع العرب المسلمين، سواء بشكل مباشر أو غير مباشر.

الثقافة العربية: من الأصالة إلى المعاصرة

(١) نقل المنهجيات الغربية والواقع العربي:

إن قضية البحث عن منهج هي القضية الأولى في كل العلوم الدقيقة والعلوم الإنسانية، إذ ترتبط نتائج كل علم بالمنهجية المتبعة. ولذا نستطيع أن نؤكد أنه ـ في العصر الحديث ـ ليس من علم دون منهجية تشكل الخلفية التي بنى عليها. وإذا كان الأمر كذلك، جاز لنا أن نقول بأن الفراغ العلمي والتخبط الفكري ـ بعد عصور السلف في المشرق أو المغرب ـ ولا سيما في الوقت الراهن كما يعيشها واقعنا الثقافي العربي، تظهرهما بوضوح سذاجة المنهجية التبريرية التي نعاني منها.

ونحن ندعو من خلال هذه الندوة إلى ضرورة الاهتمام بوضع منهجية مشتركة للحوار الثقافي العربي بين المشرق والمغرب، في ضوء التحدي الحضاري الذي تطرحه إشكالية المنهج، والسبيل إلى تخطى هذا الواقع الأليم نحو آفاق الخلق والإبداع غير المحدودة. على الأقل أن نكون خير خلف لخير سلف.

إذ ما حاولنا الكشف عن طبيعة المنهجيات، كما طورها الفكر الغربي، يمكننا حينئذ أن نتبين " المأزق " الذي ينطوي عليه نقل هذه المنهجيات لتطبيقها على واقع ثقافي مختلف للواقع الذي نمت وترعرعت فيه.

(أ) إن ارتباط كل منهجية بحقبة معينة، وفى مجتمع معين، يعني نسبيتها وفقدانها للشمولية والتعميم، وبالتالي فإن نقلها وزرعها في غير أرضها، بشكل آلىّ، يصبغان عليها في البداية هالة من الجدة، غير أن الافتتان بها لا يلبث أن يذبل ويتلاشى مخلفا الفراغ. فقد حاول المفكرون العرب ـ عموما في العصر الحديث نقل وجودية هيدجر، ثم وجودية سارتر، وكذلك جرت محاولات لنقل الوضعية الجديدة، وهى تمثل مرحلة متقدمة من الابستمولوجيا. ولم تستطع هذه المنهجيات أن تتأصل وتنمو لأن الخلفية التي كانت وراء ظهورها في الغرب لم تكن قائمة في ارض العرب. والغريب أن هناك الآن محاولات لتطبيق اركيولوجيا ميشيل فوكو على واقع الثقافة العربية: فهل سيكون حظها أوفر من حظ غيرها

من المنهجيات ؟

(ب) إن عدم براءة أي منهج وارتباطه الأيديولوجي يعنى أننا حين ننقل منهجا معينا إلى واقع مغاير للواقع الذي نما فيه، فأننا نتجاهل كل الخلفيات الثقافية الاجتماعية التي تحكمت في وجوده، وقد يقودنا هذا حتما إلى أخطاء فادحة في أي حكم نحاول أن نطلقه على واقعنا العربي الثقافي.

(ج) إن نقل مفاهيم معينة ذات دلالة محددة في إطار محدد، إلى واقع مختلف قد يؤدى إلى وجود بلبلة أو فوضى منهجية لا يمكن أن تقود إلا إلى الكثير من الغموض والإبهام، وهو بالقطع ما نجم عنة سوء التفاهم - وحدة أم تعدد - في الحوار بين المشرق والمغرب.

تعقيب : إن هذه المنهجيات - رغم نواقصها في الثقافة العربية الراهنة - إلا إنها تشكل الطريق غير المباشر نحو المزيد من الحرية. إنها طريق التحرر الملئ بالأخطاء والعثرات، لكنه طريق الخلاص الطويل الذي يمتد إلى الأفاق غير المحدودة للخلق والإبداع والتجديد. فكل منهجية تشكل محاولة جديدة لفهم الذات، أو بالأحرى لتوسيع أفق هذا الفهم. فهل ساعد ذلك على مرونة الحوار - في الثقافة العربية- بين المشرق والمغرب ؟

حاجة الحوار / الثقافة العربية (بين المشرق المغرب) إلى منهج مشترك :

ضرورة تفرضها العولمة والتحولات الفكرية العالمية :

إن رفض المنهجيات الغربية - في ضوء العولمة والتحول الفكري العالمي - قد يعنى الانغلاق على الذات العربية، وخنق ديناميكية الحياة الثقافية. بينما الانفتاح على الغير - أو انفتاح الأنا العربي على الأخر العربي - والتفاعل الحضاري معه، ومعرفة الذات أو الأنا بتوسيط الأخر، قد تكون مكونا أساسيا لكل عطاء جديد . . .

ونعلنها صراحة من خلال هذه الندوة إننا - نحن المفكرين والمثقفين العرب - في حاجة ماسة إلى توحيد مناهجنا الفكرية ، لضمان موضوعية الحوار، وتقليل مساحة الاختلاف، وبعبارة أخري "إن وحدة الثقافة بين المشرق والمغرب" تعد شرطا أساسيا للمساهمة الفعالة في حضارة الإنسان العربي المعاصر. غير أن مثل هذا الأمر يجب أن تسبقه معرفة جيدة لطبيعة المرحلة الاجتماعية والسياسة التي نمر بها.

أخيرا : هذه دعوة للباحثين عن "واقع ثقافي أفضل" - ثقافة واحدة أو متعددة - في

الحوار العربي بين المشرق والمغرب : أقول فيها " إن تغيير الواقع الثقافي العربي الراهن، وتخليصه من حالة الركود الفكري الذي يعيشه، وباختصار إن ملْ الفراغ العلمي الذي يدور فيه هذا الواقع ، ليس بالأمنيات، أو تفوق طرف في الحوار، أو الكشف عن الفراغ أو الاغتراب الذي يعانى منه هذا الواقع، ولا يكفى أن نقول بأننا لسنا ضد العلم أو التجديد، بل من المهم أن نبدأ بإنتاجه، لا أن نكتفي باستهلاكه كما يصلنا، وإلا أصبحنا أسري منهجية واحدة ساذجة، أو منهجية التغني والتفاخر بكل ما يمت لتراثنا بصلة ، أو منهجية جمع أكبر عدد ممكن من الأدلة على فساد حضارة (الأخر) .

والواقع أن مثل هذه المنهجية هو قد تسىْ من قريب أو من بعيد للحوار العربي، بل للثقافة العربية. إذ تقيم بيننا وبين ماضينا ستارا كثيفا يجعلنا نخشى التطلع إليه بعين الموضوعية، وتجعل بيننا وبين المستقبل سحبا تحجب كل رؤية لأفق ثقافتنا !

أخيراً إن لم ننتبه إلى التحديدات التي تفرضها علينا التحولات الثقافية العالمية في ضوء العولمة أو ما بعد الحداثة، أو نهاية التاريخ، أو نهاية الميتافيزيقا . . . الخ . . . . . . فقد نصل من خلال مثل هذا الحوار : إلى ثقافة عربية بلا مركز !